

سلمية وصف طبوغرافي تاريخي أثري

وصفي زكريا

سلمية بلدة قديمة كان لها شأن وذكر قبل الإسلام ولا سيما بعده في عصوره الأولى والمتوسطة ففيها جرت المعركة الحاسمة التي قضت على دولة الأمويين وأمال أتباعهم ومنها نشأت الدعوة الإسماعيلية في الشام وانتشرت، وفيها ولد أول خليفة فاطمي وفيها كان مقر أعظم أمراء أعراب البادية الذين أثروا كثيراً في العصور المتأخرة في زوال عمران شمالي الشام. وهي الآن قرية كبيرة في شرقي حماة إلى الجنوب وشرقي حمص إلى الشمال تبعد عن الأولى ٣٢ وعن الثانية ٤٠ كم، تقع في سهل أفيح مترامي الأطراف مطرد المناظر ينتهي في الشرق البعيد عند سفح جبل البلعاس حيث آخر العمران وفي الشمال يتصل بالبراري الممتدة نحو خرائب قصر ابن وردان والاندريين وفي الجنوب بالتلعات والمنبسطات الداهية نحو حمص وتشرف على سلمية من العرب وعن كذب سلسلة أكام من أعضاء هضبات متموجة تضمحل عند سقى العاصمة الأيمن وهي في يومنا قضاء من أعمال لواء حماة يقطنها زهاء تسعة آلاف من الإسماعيلية أهل الحرث الزرع بينهم عدد ضئيل من الغرياء هم موظفون أوباعة أو صناع. وفي قضائها قرى وضياح عديدة يقطن أكثرها الإسماعيلية والنصيرية وأقلها الأعراب والشركس ويشتد فعل الرياح الغربية في سلمية لوقوعها في ذلك السهل الأفيح فتثير العجاج وتحول دون نمو الأشجار. وقد يصل البرد في الشتاء إلى درجة الصفر، كما أن حر الصيف قد يبلغ الأربعين على أن جفاف الهواء يخفف وطأتها فلا يشعر بها كما في حماة ذات الوادي المنخفض وكمية الأمطار السنوية لاتنفي عن الأربعمئة ميليمتر في معظم السنين ولذا لا تخصب تربتها الرملية الكلسية الصفراء إلا إذا جاءها الغيث بكثرة ولا تنمو الزروع الصيفية والأعناص في مستهل نموها والأشجار في كل حياتها إلا إذا رويت وقد اشتهرت سلمية بسعة كرومها وبساتينها وأراضيها الأعداء، وأجل غلالها التي تصدرها إلى بندر حمص ثم حماة الحنطة والشعير والقرج والبصل والكمون وصنف من العنب يدعى البياض يتأخر نضجه حتى أواخر الخريف ويستخرج ماء سلمية من الآبار وهو قريب المنال ووسط عذوبته ويرجع الفضل في عمران سلمية إلى القنى القديمة الرومانية والعربية الممتدة فيها وفي أعمالها كخيوط الشباك مما لا نظير له في بلاد الشام إلا قليلاً في أقضية منبج ودوما والقطيصة.

وهذه القنى من العجائب الشاهدة بمقدرة الأقدمين في نقر الصخر الصلد ورسوخهم في علم استنباط المياه وجرها، يفجر أهل سلمية الحاليين هذه القنى وقد برعوا في تتبع آثارها وفتح أسرارها وآبارها ويسيلونها، ويوشك إذا دامت هذه العناية أن تصبح كورة سلمية غوطة مصغرة ويعود إليها مجدها الغابر الذي ذكره جغرافيو العرب ونعتوه بكثرة المياه والشجر ووفرة الخصب الرخاء ومن البواعث التي وجهت أنظار الغابرين والحاضرين نحو سلمية هذه المروج الممتدة في شمالها وغربها وأجلها شأننا المسماة الخصيمية وهي واسعة مستوية يزكو فيها الكلاء ويسبق في سنى الخصب، ومياهها وفيرة وفي متنازل اليد إذا حضرت لها حفائر.

وقد كانت هذه المروج في العصور الماضية ممر الجيوش الزاحفة من حلب نحو دمشق ومصر أو العكس، أو محط القاصدة حصار حماة أو حمص فتربع خيلها وتريح جندها، لاسيما والطريق من حلب إلى سلمية المار من سيف البادية (الخرايج، تل حلاوة، الحمراء) تكثر فيه البطاح والغدران وتقل فيه دواعي الاصطدام مع حماة المعمور وهما أمران غير متوافران في طريق المعرة وحماة ثم إن قبائل الأعراب كانت وما برحت تقيظ في هذه المروج وترتع فتزيد خصبها بتراكم روث أنعامها. وأكثر دور سلمية قباب مخروطية الشكل من اللبن والتراب كما هو الحال في القرى الممتدة شرقي حمص وحماة وحلب على أنها صارت تبدل منذ ربع قرن بدور حجرية جلها من الطراز القروي البسيط، وفي منتصف هذه البلدة ساحة وسبعة تلتقي فيها طرق الأحياء الضيقة المعوجة غير المرصوفة وتحيط بها حوانيت الباعة ومرائب السيارات وقد قامت في وسطها دار الحكومة وفندق حوله حديقة وبجانبها جامع للسنين حديث البناء وكذا الدار والفندق المذكوران، وثمة في جنوبي سلمية مدرسة ابتدائية رسمية ذات بناء جميل وأخرى في غربها زراعية عملية أنشئت سنة ١٣٣٧ وقامت أبنيتها العديدة وسط أرض فسيحة خاصة بها والمدرستان أنشئتا بإيعاز الحكومة العثمانية تبرع الأهليون بأراضيها وأنفقوا قسماً من الأموال التي يرسلونها عادة إلى الهند في تشييد مبانيها؟

وقد سبق لكاتب هذه السطور جهود جمة في فتح المدرسة الزراعية وإعمارها وإدارتها قبل الحرب العامة ولاسيما بعدها لما أحرقت وأغلقت عقيب انسحاب الترك، فتمكن برغم المنغصات والمثبطات التي كانت تعترضني من تعليم التلامذة الذين كانوا يتقاطرون من مختلف أنحاء الشام وتدريبهم على الأساليب الزراعية الحديثة ووضعت المناهج والمصطلحات وألفت بعض الكتب في الفنون التي لم يسبق تدريسها في العربية وأنشأت الكروم والبساتين والمشاغل الزاهية حتى الآن وخرجت خلال السنوات السبع التي مكثت فيها عدداً غير يسير من الأخصائيين استلمت طائفة منهم زمام العمل فيها وغيرها من المعاهد والدوائر الزراعية في مختلف الأقطار العربية فكان منهم بعض النفع في خدمة هذه الحرفة.

ويعد أن غادرت هذه المدرسة وسدت أمورها إلى غير أهلها فأمعنوا فيها خبطاً وحطاً حتى اضطروا الحكومة في سنة ١٣٥٢ إلى إلغائها وإبقائها كمراكز للاختبار الزراعي فحسب وبذلك خسروا سلمية معهداً علمياً كان على علاته سبب اشتهاها ومصدر رقيها الثقافي والزراعي

ناهيك عن نفعه بقية البلاد الشامية التي كانت ترسل أبناءها للاغتراف من ينبوعه. وسلمية بلدة عريقة في القدم منذ العصور الأولى بدليل العثور على كثير من عاديات الأمم الغابرة فيها وضواحيها ينبشها الأهليون من الأطلال والمدافن القديمة ويبيعونها من غواتها بأثمان جيدة. فهي إذن لابد أن تكون كحماة وقطنا (المشرفة) والرسن (آرتوزيا) تبعت حمص عاصمة هذه الديار في تلك العصور وشاطرتها على نسبة مصغرة أدوار الإقبال والإدبار في عهد اللوذيين والحثيين والآراميين والسلوقيين ولا يبعد أن تكون تبعت إمارة شمسغرام العربية التي سادت تحت إشراف السلوقيين في حمص والرسن خلال العصر الميلادي الأول.

ثم رأت سلمية عهد الرومانيين الذين فجروا فيها تلك القنى العجيبة ومدوا عمران ضاحيتها إلى جبال البلعاس وفيافي وكان اسمها في عهدهم SALAMISS إلى أن خلفهم البيزنطيون ثم المسلمون. ومما يدل على عمران سلمية إذ ذاك أنه لا تخلو باحة لو دار فيها من أسس الجدران أو ناووس أو جرن أو عتبة أو تاج أو عمود أو قاعدته أو سارية بعضها مستعمل في تضاعيف الأبنية الحاضرة وبعضها مبعثر ومنها ما عليه كتابات ونقوش يونانية تنتظر من يعني بها ومما أدى إلى عمران سلمية آئذ أن مركزها الجغرافي جعلها تمر بها في زمن ازدهار تدمر وبعده من لم يرغب العروج بحمص من القوافل الغادية والصادية من تدمر والعراق إلى شمال الشام وما وراءه من بلاد الروم.

ولكنها لم تكن ذات مكانة حربية توجب إشادة الأسوار والثكنات التي كانت تزدهي بها تدمر والأندرين على أننا لفقد المراجع ما زلنا نجهل تاريخ سلمية في تلك العصور وحالتها، لاسيما كيف كانت إبان الفتح الإسلامي عامرة وخربت بعده، أم أنها خربت قبله في أواخر عهد البيزنطيين حينما سادت الفوضى إدارتهم وأرهبوا الشعب بكثرة الضرائب وطرق جبايتها وشغلوا بالحروب المستمرة مع الفرس فانحطت بسبب ذلك بلاد الشام عامة ونقص قطانها وخربت منها على الأخص أقامية وأسريا والأندرين وخنصرة وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة على سيف البادية ولا تزال أطلالها تدل على ازدهارها السابق ومنها كانت سلمية.

ويظهر من كلام جغرافي العرب أن سلمية ظلت خراباً أوشبه خراب خلال القرن الأول الهجري إلى أن جاءها في القرن الثاني عبد الله بن صالح العباسي الهاشمي وعمرها، فقد قال اليعقوبي من رجال القرن الثالث في كتاب البلدان:

وسلمية وهي مدينة في البرية وكان عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابتناها وأجرى إليها أنهرًا واستنبط أرضها حتى زرع فيها الزعفران وأهلها من ولد عبد الله بن صالح الهاشمي ومواليهم وأخلاق من الناس تجار وزراعيين، وقال ياقوت في معجم البلدان: سلمية بلدة في ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين (كذا) وكانت تعد من أعمال حمص، اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلاً وبني هو وولده فيها الأبنية ونزلوها وبها المحارب السبعة يقال تحتها قبور التابعين، وفي طريقها إلى حمص قبر النعمان بن بشير وينسب إليها بعض أهل العلم كابي ثور هاشم بن ناجيه السلمي وعبد الوهاب السلمي

وأيوب بن سلمان السلمي القرشي كان إمام مسجد سلمية ومحمد بن تمام السلماني من أهل سلمية توفي سنة ٣١٣ وعبد الله بن عبيد السلماني من أهل سلمية.

وذكر ياقوت سبباً سخيلاً لتسمية سلمية وعمرانها أن أصل اسمها مشتق من كلمة سلم مائة للمئة نفس الذين أنجوا من خراب مدينة المؤتفكة ونزحوا إلى سلمية فعمروها وسكنوها وكان يرجى من الملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة -وسلمية على مقربة منه- أن يصفها بتفصيل ولكنه رحمه الله اكتفى في تقويم البلدان بقوله: سلمية من أعمال حمص، بلدة نزهة ومياهها قنى ولها بساتين كثيرة قال ابن حوقل: وسلمية الغالب على سكانها بنو هاشم وهي على طرف البادية خصبة قال في العريزي: ومدينة سلمية على ضفة البرية كثيرة المياه رحية خصبة.

أما المؤرخون فلا يذكرون سلمية إلا الفينة بعد الفينة وعرضاً وأول ما ورد اسمها في التاريخ كان في حديث المعركة التي نشبت في مرج الأخرم (الطبري وابن الأثير) الذي نظنه أنه المرج المسمى في يومنا مرج القريم في غربي سلمية وإن لم يصرح بذلك المؤرخون إذ ليس في شمال الشام قاطبة مرج يقرب اسمه من الأخرم سوى الذي في سلمية وهذه المعركة جرت سنة ١٣٢هـ بين عبد الله بن علي العباسي أول قائد وعامل عباسي في الشام وأبي الورد بن الكوثر الكلابي من قواد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين، وكانت الدائرة على أبي الورد فرسخت بهذه المعركة الحاسمة أقدام العباسيين وقضى على آمال الأمويين في الشام ولما استتب الأمر للعباسيين جاء عبد الله بن صالح بن علي في أيام ولاية أبيه صالح بن علي العباسي على قنسرين وحمص ودمشق.

وكان عبد الله مغرمًا كأهله بالبناء والعمران فكما أن أباه صالح بن قصر بطلياس في قرية النيرب شرقي مدينة حلب وأخاه عبد الملك بن قصر منبج وقطنها، بني عبد الله بن صالح وأولاده في سلمية الأبنية ونزلوها وأجروا إليها أنهرًا على ما جاء في أقوال الجغرافيين.

وكان لعبد الله هذا لدى أبناء عمه الخلفاء العباسيين مكانة كبرى وجاء المهدي سنة ١٦٣ وأعجب بما رأى من منزله لما نزل عليه في سلمية في مسيرة إلى بيت المقدس (الطبري ج ١٠ ص ٥٠٠ طبعة ليدن) ثم جعله عاملاً في العراق وزوجه أخته.

ويظهر أن كثيراً من العباسيين أقارب عبد الله وغيرهم من بني هاشم استطابوا سلمية فسكنوها في القرن الثاني والثالث فعمرت بهم وبمواليهم والتف حولهم أخلاط من الناس تجار وزراعيين وفتحوا قنيها التي تعجب الآن بحسن هندستها وأنشأوا فيها البساتين حتى صارت كثيرة المياه والشجر رحية خصبة كما قال اليعقوبي وابن حوقل ونشأ فيها بعض العلماء الذين ذكرهم ياقوت ولم يبق الآن في سلمية أقل من ذلك العهد الهاشمي الذي سعدت به سلمية ولم تر بعد مثله إلا في العهد الأيوبي وقد وجد الأوروبيون الذين زاروها في غرة هذا القرن في مدخل الحصن الذي هدم حجراً فيه كتابه خمنوا أن تاريخها سنة ١٥٠ وأنه الجامع الذي بني في عهد بني هاشم ثم هدمه القرامطة سنة ٢٩٠ ووجدوا أيضاً في داخل الحصن كتابة دلتهم ظواهرها أنها لأحد الهاشمين تعود هي ومثلها كتابتان أخريان إلى زمن ربما كان تاريخه سنة ٢٨٠.

ويظهر أيضاً أن بعض بني هاشم الحسينيين الذين أخفقوا مراراً في الوصول إلى كرسي

الخلافة في عهد الأمويين ثم العباسيين قطنوا في سلمية ورأوا في بعدها عن سيف البادية مجالاً لحركاتهم السياسية فظلوا يحاولون ويثبتون دعايتهم وقد انتصر مرة أحدهم لأحد أبناء الخلفاء العباسيين ضد أبيه قال ابن الأثير في أحداث سنة ٢٦٨: خرج في أيام المعتمد رجل من ولد عبد الملك الهاشمي في الشام بين سلمية وحلب وحمص ودرعا ودعا لابنه الموفق فحاربه ابن العباس فانهزم الكلابي فوجه إليه لؤلؤ صاحب بن طولون قائداً مع جيش لحربه أهـ.

ولم يزد ابن الأثير على عبارته هذه فلم نعرف كيف كان اتصال هذا الثائر الهاشمي بالموفق وهو في الشام وذاك في العراق ولا مصيره بعد حربه مع لؤلؤ المذكور وكان من أخص الهاشميين في المحاولة وبث الدعوة لاسمه رجل اسمه محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن اسماعيل.

واسماعيل هذا هو الذي تعتقد الإسماعيلية أن الإمامة انتقلت إليه من أبيه جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي وكان محمد الحبيب طموحاً فعلاً برسل من سلمية المبشرين بإمامته، ويظهر له كان ممن يرون أن الغاية تبرر الوسيلة فاستعان إذ ذاك بعبد الله بن ميمون القداح، وكان هذا في الظاهر من غلاة الشيعة الداعين لآل البيت وفي الحقيقة من بقايا مجوس الفرس الساعين لهدم كيان العرب والمسلمين وحشو الإسلام بتعاليم مجوسية يشغل بذلك في أصفهان والأهواز والبصرة فوافى سلمية وقيل بل وافاها ابنه حسين ملبياً طلب محمد الحبيب وأقام فيها إلى مماته ساعياً لبث مذهبه تحت ستار الدعوة لآل البيت، ويظهر أن القداح جر وراءه جمعاً من مريديه المنتشرين في بلاد فارس والعراق فصارت سلمية من ذلك الحين مركزاً لهم ولشيعتهم التي سميت بالباطنية والإسماعيلية.

ولما توفي محمد الحبيب أوصى إلى ابنه عبيد الله المولود في سلمية سنة ٢٥٩ وأطلعه على حال الدعوة وشاع ذلك في أيام المكتفي فطلب فهرب عبيد الله إلى المغرب الأقصى لاحقاً بأبي عبد الله الشيعي الذي كان أرسله أبوه ليمهد له الدعوة في إفريقيا وتلقب عبيد الله بالمهدي وادعى أنه من نسل فاطمة وتوصل إلى تأسيس الدولة الفاطمية أو العبيدية التي انتقلت بعد حين إلى مصر ونازعت العباسيين الخلافة ودامت من سنة ١٩٧ إلى سنة ٥٦٧.

وقد اختلف المؤرخون في صحة نسب عبيد الله المذكور فمنهم من عده مدخولاً وبالعنف طائفة منهم في الدس والافتراء إلى أن جعلوا نسبه في اليهود فقالوا إن أباه هو الحسين بن عبد الله بن القداح بن ميمون بن دبصان وأن الحسين المذكور لما قدم إلى سلمية تزوج امرأة حسناء لرجل يهودي حداد في سلمية مات عنها زوجها وكان لها ولد من اليهودي فأحبه الحسين وأدبه إذا لم يكن له ولد وعرفه أسرار الدعوة وأعطاه الأموال والعلامات فدعا له الدعوة وسموه عبيد الله المهدي.

وفي سنة ٢٩٠ جاء القرامطة ففتكوا بأهل سلمية كما فتكوا في حماة والمعرة دون حمص التي استسلمت لهم.

قال الطبري (ج ١١ ص ٣٨١ طبعة مصر) ثم سار الحسين بن زكرويه القرمطي المعروف بأبي شامة إلى سلمية فحاربه أهلها ومنعوه الدخول ثم وادعهن وأعطاهم الأمان ففتحوا ثم ثني

بأهل سلمية فقتلهم أجمعين ثم قتل البهائم ثم صبيان الكتائب ثم خرج منها وليس بها عين تطرف فيما قيل وسار فيما حوالى ذلك من القرى يقتل ويسلب ويخيف السبيل.
ظل على هذا المنوال إلى أن أدركته في السنة التالية جيوش الخليفة المكتفي في قرية تمنع (التمانة) شرقي المعرة وشتت شمله.

وفي الطبري حكاية عن سيدة هاشمية سبأها هؤلاء القرامطة في سلمية إذ ذاك وبعد أن كادوا يقتلون استطابها أربعة منهم وواقعوها معاً مدة مديدة إلى أن وضعت غلاماً لم تدر من أي الأربعة هو.

ولم يذكر الطبري ولا غيره من مؤرخي العرب الذين دأبهم ويا للأسف سرد الحوادث دون تحليلها أسباب فتك القرامطة ببني هاشم هذا الفتك المريع وفي ظني أن ذلك لكونهم من أقارب منائهم الخلفاء العباسيين.

ولم يذكر الطبري أيضاً ما إذا كان القرامطة خربوا سلمية وقتلوا وقضوا على مباني الهاشميين وقنيهم ويساتينهم أم اكتفوا بتقتيل سكانها وإخلائها.

فلم نعلم متى عاد السكان والعمران إليها بعد خرابها الثاني وهذا وقد تقدم أن الأول كان في القرن الأول الهجري بدأ من أواخر عهد البيزنطيين وهل كانت في القرن الرابع الهجري أهلة أم خالية لاسيما حين جاءها سيف الدولة ابن حمدان سنة ٣٤٤ وهو يطارد أعراب البادية الذين شقوا عصا الطاعة عليه وكانوا جعلوا مقرهم في سلمية ففتك بهم في معركة جرت في المروج الممتدة حولها فامتدحه المتنبي بقصيدة جاء فيها:

فأقبلها المروج مسومات ضوامر لاهزال ولاشيار
تثير على سلمية مسبطراً تناكر تحته دون الشعار

وسكتت التواريخ عن سرد أحداث سلمية في أوائل القرن الخامس وأواسطه إلى أن قالت أن سلمية كانت في أواخر القرن المذكور من أعمال الأمير البدوي خلف بن ملاعب الكلابي صاحب حمص استحوذ عليها سنة ٢٧٦ إلى أن جاء تتش أخو السلطان ملكشاه السلجوقي واستخلصها هي وحمص من يده لكثرة عبثه وإفساده السابلة.

وفي سلمية من عهد الأمير خلف المذكور مسجد خراب وظلت سلمية تعد من أعمال حمص كالسابق ويذكرها المؤرخون الفينة بعد الفينة في سياق أحداث حمص.

ففي سنة ٤٩٦ دخلت في حوزة رضوان بنت تتش السلجوقي صاحب حلب وفي القرن السادس سنة ٥٣٢ جاءها عماد الدين زنكي وقد كان يحاصر حمص وتركها لما بلغه قدوم جيوش الروم إلى حلب ثم خرج من سلمية لمقاتلتهم حينما وصلوا إلى شيزر (ابن الأثير ج ٩ ص ٣٦).

وفي سنة ٥٧٠ استخلص صلاح الدين الأيوبي سلمية من يد فخر الدين ابن الزعفراني أحد أمراء نور الدين محمود كما استخلص حمص وحماة وغيرها وأقطعها إلى ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر صاحب حماة فصارت من أملاك هذا الفرع الأيوبي من ملوك حماة.